الأستاذ عبد الحميد العبادى

أستاذ التاريخ الإسلامى وعميد الكلية السابق

بقلم جمال الدين الشيال

أستاذ جليل ومؤرخ محقق ، من الطلائع الذين أقاموا الجامعة والحياة الجامعية فى مصر على أسس قوية قويمة .

من أبناء الأسكندرية ، ولد فيها سنة ١٨٩٢ وأتم علومه الابتدائية والثانوية فى مدارسها ، ثم التحق بمدرسة المعلمين العليا وتخرج فيها سنة ١٩١٤ .

وكان منذ شبابه الأول موئلا للأدب ، يحفظ كثيراً من الشعر العربى القديم ويرويه . وكانت منتديات الاسكندرية الأدبية تجمع بينه وبين أصدقائه ولداته من أدباء الثغر وشعرائه ، من أمثال : عبد الرحمن شكرى ، وإبراهيم مصطفى ، وعبد اللطيف النشار . والمرحوم الأستاذ الشاعر حسن فهمى .

وأثناء تلقيه العلم فى مدرسة المعلمين العليا بالقاهرة عقد أواصر الصداقة مع نخبة ممتازة من زملائه فى المدرسة وفى المدارس العليا الأخرى . وجمعت بين هذه النخبة عوامل كثيرة من الألفة والصداقة والمشاركة فى الميول والأحاسيس والآمال والأهداف ، فقد كانوا جميعاً من عشاق المعرفة ومحبى البحث والاطلاع ، وكانوا جميعاً من أصدق الشبان فى ذلك الوقت وطنية ، وأشدهم تعلقاً بالمثل العليا ، يكفى أن نذكر منهم المغفور لهما الأستاذان : أحمد يوسف الجندى ، وأحمد أمين . والأستاذ محمد فريد أبو حديد ، والدكتور محمد عبد السلام الكردانى ، والأستاذ أحمد حسن الزيات ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، والأستاذ أمين مرسى قنديل ، والدكتور أحمد زكى ، وسيذكر المؤرخون عندما يكتبون تاريخ مصر فى النصف الأول من تاريخ القرن العشرين أن هؤلاء الرجال الأفذاذ كانوا الطلائع فى ميادين الجهاد الوطنى القومى وميادين النهضة العلمية الثقافية الحديثة .

ولست أعرض هنا لجهادهم فى ميادين النضال القومى ، فلست أعرف من أسرارها إلا القليل ، وحبذا لو أقدم الأساتذة الأحياء من هؤلاء الطلائع — وبخاصة أستاذنا الأديب المؤرخ الكبير محمد فريد أبو حديد — على تدوين مذكراتهم عن تاريخ مصر فى هذه الحقبة ؛ ولكنى سأعرض هنا فى إيجاز لجهود هؤلاء الرجال الأمجاد فى سبيل النهوض بمصر علمياً وثقافياً .

كان هؤلاء النفر من شباب مصر يجتمعون بعد الفراغ من دراستهم فى منزل واحد منهم ، وتدور بينهم المناقشات ، وكانت كلها تدور حول مصر ووسائل النهوض بها ، وإذ كانوا جميعاً من رجال العلم والتعليم ، ومن طلبة المعلمين العليا والأزهر والقضاء الشرعى فقد انتهت بهم المناقشات الى التفكير فى إنشاء لجنة لوضع كتب علمية حديثة يساهمون بها فى إرساء النهضة الثقافية المصرية على قواعد سليمة ، وأسست اللجنة سنة ١٩١٤ ، وأسموها لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وكانت لجنة موفقة فقد كانت أول لجنة مصرية ثقافية يكتب لها التوفيق والبقاء والاستمرار ، وظلت سنوات طويلة وهى مصدر إشعاع فكرى واسع المدى ، لا فى مصر وحدها ، بل فى العالم العربى والإسلامى كله ، وقد كان الأستاذ العبادى — رحمه الله — واحداً من بناة هذه اللجنة ومؤسسيها والعاملين على نجاحها ، بل لقد كانت الاجتماعات الأولى التى تمخضت عن مولد هذه اللجنة تعقد فى المنزل المتواضع الذى كان يقيم فيه عبد الحميد العبادى الطالب بمدرسة المعلمين العليا .

ثم أسهم الأستاذ العبادى فيما بعد فى نشاط هذه اللجنة العلمى ، فأخرج عدداً من الكتب كانت كلها من مطبوعات اللجنة ، نذكر منها :

المسألة المصرية لرونسين ، وقد اشترك فى ترجمته إلى اللغة العربية مع الأستاذ محمد بدران .

وكتاب نقد النثر المنسوب لقدامة ، وقد اشترك فى نشره والتقديم له والتعليق عليه مع الدكتور طه حسين .

وكتاب علم التاريخ لهرنشو ، وقد ترجمه عن الانجليزية وأضاف إليه بقلمه فصلا قيما عن التاريخ عند العرب .

وقد بدأ الأستاذ عبد الحميد العبادى حياته العلمية بالعمل فى مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ، ثم عين أستاذاً للتاريخ فى مدرسة القضاء الشرعى ، وشارك فى النهوض بها مجموعة من أعلام الفكر فى مصر وقتذاك ، فى مقدمتهم المغفور لهم عاطف بركات ، وأحمد أمين ، والشيخ محمد الخضرى .

وتتلمذ عليه فى هذا المعهد عدد ممن تولوا قيادة الفكر فى مصر بعد هذا ؛ من أمثال : الدكتور عبد الوهاب عزام ، والأستاذ أمين الخولى ، وعندما افتتحت الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥ اختير الأستاذ العبادى ليكون أستاذاً للتاريخ الإسلامى بكلية الآداب ، ثم اتسع نشاطه بعد ذلك ، فندب للتدريس فى مدرسة دار العلوم ، وفى الجامعة الأزهرية ، وفى دار المعلمين العالية ببغداد .

وعند إنشاء جامعة الاسكندرية فى سنة ١٩٤٣ عين الأستاذ العبادى عميداً لكلية الآداب وأستاذاً للتاريخ الأسلامى بها ؛ وأحيل الأستاذ للمعاش فى سنة ١٩٥٢ ، ولكنه ظل كعادته موفور النشاط ، فكان يلقى محاضراته فى جامعة عين شمس ، وفى معهد الجامعة العربية للدراسات العليا ، واختير فى هذه الأثناء عضوا بالمجمع المصرى للغة العربية ؛ وكان فى كل هذه المناصب مثال الرجل المخلص فى عمله ، حريصا على أداء الواجب محبا لمادته ودراساته ، لا تلهيه الأعمال الإدارية — على كثرتها — عن دروسه ومحاضراته .

وقد بدأت أتتلمذ عليه منذ نحو عشرين سنة ، ثم كنت أقرب تلاميذه إليه ، كنت أحبه وأقدره ، وكان يبادلنى حباً بحب وتقديراً بتقدير . وأشهد أنه كان — رحمه الله — الأب الرحيم لكل تلاميذه والعاملين معه ، يعطف عليهم ، ويوجههم الوجهة الطيبة ، وقد تخرج على يديه المئات بل الألوف ، أجيال بعد أجيال من التلاميذ ، وليس من بينهم إلا من يذكره بالخير والاحترام والتقدير ، يعرفون له علمه الغزير ، ويقدرون له روحه السمحة ، وخلقه الكريم ، وأسلوبه العف ، وهدوءه الوقور ، واتزانه الحكيم .

أما العبادى المؤرخ فليس يعرفه غير زملائه وتلاميذه فى مصر والعالم العربى الإسلامى ، فقد كان التاريخ قبله رواية تروى ، أو قصة تحكى ، أو نكتة تقال ،

أو بيتاً من الشعر ينشد، وكان العبادى أول من ارتفع به إلى مرتبة العلم، فجعله فكرة تمحص، وتحليلا، ونقداً، ومقارنة، ودراسة دقيقة، على أسس ومناهج علمية ثابتة، فإذا كان فى مصر اليوم من يفهم التاريخ الإسلامى حق فهمه، ومن يجيد بحثه ودراسته، فإن الفضل الأكبر فى هذا إنما يرجع إلى العبادى وطريقته وجهوده .

وإلى هذا كله كان العبادى يمتاز بأسلوب أدبى رفيع رصين، فارتفعت بحوثه ومقالاته التاريخية إلى مستوى لا يستطيع أن يرقى إليه الكثيرون. ولا يزال الشبان والكهول فى مصر والعالم العربى يذكرون بحوث الأستاذ التاريخية التى كان ينشرها فى مجلتى الرسالة والثقافة، ثم فى مجلات الجامعات العلمية، وكلها كانت تصحح خطأ، أو تكشف غامضاً، فى أسلوب تحليلى ممتع، وفى طريقة مقارنة، وقد جمعت هذه المقالات ونشرت بعد ذلك فى مجلدين بعنوان : « صور من التاريخ الأسلامى » .

وقد عرف العبادى المؤرخ خارج مصر فقدره الجميع أحسن تقدير، عرف له المؤرخون الأوربيون وكبار المستشرقين مكانته وعلمه. فكان صديقاً لهم جميعاً، وانتدبه العراق للتدريس فى دار المعلمين العالية ببغداد، وكان له هناك تلاميذ كثيرون لازالوا يذكرونه بالخير، وأختير عضوا بالمجمع العلمى العربى بدمشق، وسافر إلى استانبول مع زميله أحمد أمين لدراسة المخطوطات العربية بمكتباتها، وزار أسبانيا أكثر من مرة لدراسة الآثار الأندلسية الإسلامية، ولا غرو فقد كان الأستاذ العبادى أول من أدخل دراسة تاريخ المغرب والأندلس فى الجامعات المصرية، وظل يدرس هذا التاريخ طوال سنين إستاذيته، كما أسهم — رحمه الله — فى تمثيل مصر عدة مرات فى مؤتمرات علمية دولية فى إيران وفرنسا وأسبانيا. وعرف له المجمع اللغوى مكانته كمؤرخ وأديب، فانتخبه عضوا به، وكانت له بحوث قيمة، لعل أهمها وأطرفها البحث الذى ألقاه عن كتب الخيل وأهميتها لدراسة المصطلحات والألفاظ اللغوية .

وعندما أسست الجمعية المصرية للدراسات التاريخية منذ سنوات انتخب الأستاذ العبادى عضوا بمجلس إدارتها، وظل يسهم بنشاطه فى العمل على النهوض بها إلى أن اشتد به المرض فى العام الماضى فقدم استقالته من هذه

المرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادي

١٨٩٢ — ١٩٥٦

أستاذ تاريخ الإسلام وعميد كلية الآداب السابق

العضوية ، لأنه كان لايرضى دائما إلا أن يكون عضوا عاملا ، فلما رأى أن المرض يحد من نشاطه آثر أن يفسح الطريق لغيره ؛ وإلى هذا كله كان الأستاذ العبادى عضوا فى مجلس إدارة جمعية الشباب المسلمين بالاسكندرية .

والحقيقة أن الباحث لا يستطيع أن يحصى أوجه النشاط التى شارك فيها الأستاذ العبادى ، فقد كان — رحمه الله — مجدا للعمل مخلصا فى أدائه ، ويكفى أن نقول أنه شارك مشاركة فعالة فى معظم اللجان التى كانت تبنى السياسة التعليمية والثقافية فى الجامعات ، وفى وزارة التربية والتعليم ، وفى الجمعيات والمعاهد والمحافل الثقافية المختلفة .

وظل الأستاذ العبادى مقبلا على العمل والانتاج حتى آخر لحظة من حياته ، فعلى الرغم من اشتداد المرض به فى السنة الماضية أتم كتابا جديدا عن « العنصرية فى الإسلام » تقوم بطبعه الآن هيئة اليونسكو ، كما حقق جزءا من كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى الذى تنشره جامعة الدول العربية ، كما راجع كتاب الحضارة الإسلامية لجروناوم الذى ترجمه إلى العربية الأستاذ عبد العزيز جاويد ، ونشرته إدارة الثقافة بوزارة التربية .

ومنذ نحو ستة شهور اشتد المرض بالأستاذ فسافر — رحمه الله — إلى لندن ، وبقى فى أحد مستشفياتها ثلاثة أشهر ، ثم عاد ، ولكن العلة كانت أقوى من جسمه .

وفى الثالث من أغسطس الحالى بلغ الكتاب أجله ، وارتفعت روحه ، الى بارئها بعد هذا النضال الطويل الشاق فبكاه آله وأصدقاؤه وتلاميذه وكل من عرفه .

فرحم الله العبادى رحمة واسعة بقدر ما بذل فى سبيل العلم والوطن والعروبة والإسلام .

الاسكندرية أغسطس ١٩٥٦